لماذا قصّر النقد في تطوير حركة الشعر الحديث ؟

بقلم كمال سلطان

يعلم كل انسان ارتبط مصيره بمصير الفن والادب ـ من بعيد او من قريب ، جزئيا او كليا ـ انه ما من احد ، ما من ناقد يستطيع القضاء على عبقرية او يستطيع ابعادها عن الصفوف الامامية ، او اطفاء وهجها.

ومع ذلك فنحن نتساءل عن دور النقد ، وبالاخص عن دور النقد في الشعر الحديث . اقول الشعر الحديث واؤكد ذلك لاني ارفض منذ البدء ما يكتب في بعض المجلات والصحف من عبارات تافهة كالشعر المنثور او النثر المشعور .. ان القضية عندي هي شعر او لا شعر ، شعر يعطي عددا ضخما من الحقائق ، ويفتح ابواب عالم النفس ليحضرها، يوتر مشاعرها ويؤثر فيها ، شعر تحمل كل كلمة فيه اثقال الذكريات والاف الاحاسيس واجمل الصور .. القصيدة الشعرية تعني انها عالم حقيقي لا اثر للزيف فيه ، عالم اعمق من العمق ، ولا يصل الى تحليقه نسر .. الشعر يجب ان يكون شيئا من هذا او لا شيء.

اتحب ان تسالني ايها القاريء فيما اذا كان ما يكتب الان في الصحف والمجلات وما ينشر من دواوين ، شعرا ام لا ؟ لك الحق في هذا ولكني لا استطيع ان اعطيك جوابا صريحا واضحا ، يكفي ان تقرأ هذه السطور وان نحاول الوصول معا ـ بعد قراءتها ـ الى جواب ..

ابواب عالم شعري جديد فتحت على مصراعيها في منتصف قرننا الحاضر .. الداخلون من كل حدب وصوب ، عمالقة ومسوخ ، عباقرة ومزيفون ، مناضلون ومهرجون ، اصيلون ومتطفلون ... كثيرون يدخلون من هذه الابواب العريضة ، لا احد يسالهم ، لا احد يبحث عن ملامحهم، لا احد يصرخ في وجوههم : من انتم ؟ جنة يريدون ان تتحول الى جحيم ، فردوس موعود ، ونافذة نور حلم بها الشعراء قبل ان يولد امرؤ القيس يريدون ان يغلقوها بهذه الكثرة الداخلة عبر هذه الابواب، ابواب العالم الشعري الجديد الذي اشير الى ولادته .

بات معلوما ، اشهر من نار على ان الشعر الحديث يعتمد على التفعيلة الواحدة بدل اعتماده على الشطرة او البيت كوحدة اساسية كما كانت شعارات شعرائنا في القرون الماضية وحتى الان عند بعضهم .. ولا مجال للحديث في هذه العجالة عن اسباب تطور شعرنا الكلاسيكي في جزء من بحوره الى شكله الجديد . لا مجال للحديث عن ذلك لان الاسباب كثيرة ومتشعبة كالاتصال بالغرب منذ حملة نابليون ، والاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عانى منها شرقنا العربي كثيرا واضطرت بعض افراده الى الهجرة ، فتكون هناك ادب المهجر ... وربما كان من اسباب انتشار هذا الشكل قصور اشكال الشعر الكلاسيكي عن التعبير عن جميع ما يخص الفرد كشاعر ، وكانسان مسؤول في امة وبالتالي في عالمنا ، هذا الصغير . اقول لا مجال للافاضة لان في مقالات نازك الملائكة التي ستصدر مجموعة في كتاب قريبا ، وفي مقالات غيرها ما يغنينا عن هذا .

يبرز هنا سؤال ، اذا كان كل ما عمله الشعراء حتى الان من تحوير شكل بعض البحور العربية هو بدء التجديد والثورة ، فماذا نفعل بالباقي من بحور الشعر العربي ما دمنا ندعو الى ثورة وتجديد كاملين ؟ ونفض من الكتابة بالطريقة القديمة، طريقة طرفه وبشار وحافظ ؟

يمكن ان نجد البذور الاولى لهذا الشكل عند نسيب عريضة في بعض قصائده وعند مصطفى وهبي التل وعند نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي لكن كل ما فعلوه هو انهم التفتوا الى خاصية رائعة في ستة بحور شعرية فاعتمدوا على التفعيلة الواحدة وتكرارها مرة او اكثر حسب المعنى الذي يعبرون عنه ، ونجحوا في بعض القصائد واخفقوا في بعضها الاخر ، واظن ان العذر المهم لاخفاقهم هو كون التجربة في ادوارها الاولى وان تاريخنا الادبي لم يعرف حركة لها هذا العنف وهذه القوة ... واتى بعدهم كثيرون من الشعراء الشباب يسيرون على الطريق ذاتها دون تفهم للعمل الذي يقومون به، وكان بينهم الاصيل والدخيل وهذه الكثرة من الدخلاء هي التي سببت الهجوم على الشعر الحديث ، لانها لم تعرف كيف تستغل الطاقة الجمالية في هذه البحور . ولم تعرف كيف تخلق موسيقى جديدة ، نابعة من اعماق النفس ومتوافقة مع الاطار الخارجي بشكل رائع ... وبهذا نفسر طابع النثرية الذي سيطر على كثير من قصائدنا الحاضرة ، حتى في مجلاتنا الكبيرة كالاداب مثلا ... والشيء الهام في هذا الموضوع هو عدم معرفة امكانيات التفعيلة الواحدة . وما قام به الشعراء هو التصرف بعدد التفعيلات دون الالتفات الى تغييرها واعطائها اشكالا جديدة ، كزيادة ساكن ومد ما لم يجسر عليه اجدادنا من قبل، كما فعلت في تفعيلات البحر الطويل ، رقم (٤) وقصائد غيرها اكثر وضوحا وتنوعا .

عند هذه النقطة وقف شعراؤنا عاجزين دون ان يعترفوا بعجزهم، بل تعدوا ذلك الى الهجوم بقسوة على الشعر القديم كله .. وهذا كما اعتقد مخالف لكل تجديد ، لكل نسميه تجوزا بالثورة .. والشيء الواضح ان جذور الجديد هي اصغر وادق تشعبات الجذر القديم ، وانها موصولة بتربته اشد اتصال ، وكلما كانت الصلة اقوى كان التجديد اكثر ابداعا وخلقا وقابلية للبقاء والاستمرار ، واكثر قبولا لدى الاجيال التي تعيش الان وستعيش في اجزاء هذا الوطن الكبير.

اذن ، ماذا عمل النقاد الموجودون عندنا تجاه هذا التطور ؟

بعضهم مدح الحركة وبعضهم ذمها بعنف ، ولكن الجميع اضاعوا الوقت فيما حدث ولم ينتبهوا الى ما يمكن ان يحدث ويوجد .. ولم يضيفوا شيئا واحدا من ناحية الشكل او المعنى. وقد يعترض معترض بان الناقد ليس شاعرا ليقدم لنا النماذج الجيدة حتى يتبعها الشعراء ، وانما هو موضح لحقائق العمل الادبي من جميع نواحيه ، ولهذا اقول : ان الناقد لم يقم حتى بهذه المهمة الاساسية ...

انا اعتقد ان تجديد اشكال الشعر العربي يجب ان يمر في ثلاث مراحل :

١ ـ المرحلة الاولى هي مرحلة استعمال البحور الستة ذات التفعيلة المتكررة اكثر من مرة ، وهذا ما فعلناه ، مع سوء تصرف بشكل التفعيلة وجماليتها مما قادنا الى النثرية في اغلب القصائد التي نقرؤها .

٢ ـ المرحلة الثانية هي استعمال البحور التي لا تتكرر فيها التفعيلة الواحدة ، كالطويل والبسيط ، لشكل كامل ومجزوء في ان واحد ، كما فعلت في « اثانيون » رقم ٢ وميلاد رقم ٤ من قصيدة لا ارض .. لا اصدقاء .. المرفقة بهذه الكلمة السريعة ، وفي قصائد اخرى لم انشرها واذكر هنا بحر المجتث وما فيه من امكانيات موسيقية ...

٣ ـ المرحلة الثالثة هي ايجاد تفعيلات جديدة وتركيب الاعاريض القديمة بشكل جديد يتلاءم مع ما عرفناه عن عالم النفس في هذا العصر ، وما جد من دراسات حول النواحي الموسيقية .. وهذه المرحلة تتعلق بطبيعة اللغة العربية ذاتها وبان تاريخنا الادبي لم يصف حتى الان ويحتاج الى بعض الزمن . وهنا تبرز مهمة الشعراء الاتين ودورهم.

ومن هذا نصل الى ان واجب الشاعر ليس كتابة قصائد جيدة رائعة فقط ، بل عليه ان يساهم ويشارك في بناء هذه الحركة الجديدة

بكل ما يملك من ثقافة وموهبة وجهد .. وليس علي هنا ان اخبر الجميع بان النقاط المضيئة لا تحتاج لمن يشير وينبه اليها لانها تشع من تلقاء نفسها ، والبحث عن الزوايا المظلمة التي تخفي الكنوز عن العيون ، واضاءتها هو الشيء الذي يذكر لصاحبه .

لا شك ان الجمل القليلة التي كتبتها عن مراحل التجديد الشكلي لا يمكن ان تقدم فائدة كاملة للذين يبحثون عن متمم لمشكلة شكل الشعر الحديث ، وعذري انني لست في مجال عرض وبسط هذه المشكلة عرضا وبسطا مفصلا ، وانما اردت الاشارة الى امكانية الاستفادة من كل بحورنا القديمة لنعبر بها عن افكارنا الحاضرة ومكتسبات الحضارة الحديثة .. وانا الان في مرحلة دراسة لكل ما يمت الى الناحية الشكلية بصلة ، وكتابة قصائد نموذجية للدلالة على امكانية العمل .

اذا تركنا الشعر الان وعدنا نبحث عن جواب سؤالنا الاساسي : لماذا قصر النقد في تطوير حركة الشعر الحديث ؟

ربما استطعنا ان نقول بان عدم وجود نقد فعلي وحقيقي هو السبب ، اما ان ندعي بان لدينا نقادا فهذا لا يهم لان قيمة النقد تظهر بما يقدمه ، بما يوضحه ، بما يساعد على خلقه وتكوينه ... فهو لم يفصح :

١ ـ الدور الذي لعبه المتطفلون على الشعر الحديث في تركيز الهجوم عليه ـ افتحوا اية مجلة كبيرة ، واستثنوا قصيدة واحدة ، ثم اجعلوا الباقي كله نماذج متطفلين .

٢ ـ وهو لم يغلق الابواب العريضة في وجه الاقزام والمهرجين، ولم يكشف اللصوص والمدعين . ان باب الشعر يجب ان يكون ضيقا صعبا لا يدخله الا اهله .

٣ ـ وهو لم يضء الزوايا المظلمة واكتفى بالحديث عما هو معروف لدى الجميع .

لم يستطع النقد الحديث تقديم دراسة كاملة عن الشعر ، واكتفى قراء الادب اجمعهم بقراءة بعض مقالات متفرقة بين الحين والاخر ، مما يدعونا الى التساؤل عن :

١ ـ وجود نقد عربي

٢ ـ عن مسؤولة المجلات التي يجب ان تساهم في تكوينه وتطويره، وان ترفض نشر قصائد تافهة لاشخاص غير مثقفين شعريا . اما الفرض فدعوها ريثما ينمو الشخص بشكل يبشر ان لديه شيئا يقوله .

ان الالم الاخر الذي يقع على عاتق النقد في رأيي هو انه لم يوضح بصورة دراسة منهجية مو ضوعية مضمون الشعر الحديث واختلافه عن مضمون الشعر القديم ، ولم يشر الى خصائصه السيئة الكثيرة التي اشير الى بعضها هنا اشارة تنبيه :

أ ـ لا يوجد بناء متماسك في كثير من قصائد الشعر الحديث . فنحن نجد كثيرا من الجزئيات والتفاصيل لا تشارك في بناء القصيدة، والمفروض ان يختار الشاعر منها ما يساعد على كشف الجوانب المتميزة، ثم ابراز هذه الجوانب ، باعتبار ان لها دلالات توضح الفكرة التي يعبر عنها .

ب ـ ظاهرة التقليد وتكرار الرموز التي فقدت معناها بسبب كثرة الاستعمال كسيزيف والصليب والمسيح وابي زيد الهلالي والسندباد اننا نرى الشاعر يكرر الكلمات ذاتها مجرد تكرار لفظي ذهني ، كما حدث للشعراء القدامى حينما كتبوا عن الاطلال دون ان يكون هناك طلل او عاطفة معينة لها علاقة بالرسم او بالطلل .. والتقليد يتعلق بضعف الاحالة وسطحية التجربة وعدم تخمرها .

ج ـ التهويلات وكثرة الصور الغريبة التي لا تعطي اية قيمة اضافية للفكرة ، وتظل مجرد صور لذاتها .

د ـ وجود اللهجة الخطابية في قصائد كثيرة ، وكثرة الشعارات . ولا حاجة هنا للتنبيه الى ان الشعر يكتب ليقرأ ولا يكتب ليلقى على المنابر .. وارجع ان السبب يعود الى تاثير الدين وتاثير ادبنا القديم في استمرار هذه الخطابية .

هـ ـ تكرار بعض الكلمات : صديقتي ، الحزن ، المساء ، اميرتي ، سيدتي ، دون شحنها بعاطفة صادقة متقدة . وتكرار بعض الجمل بقصد زيادة الدلالة الموسيقية والنفسية ، ولكنها لا تساهم في بناء القصيدة ولا في اغناء الجو النفسي .

و ـ المزج بين بحور الشعر مزجا غير فني ، وهنا نرى اعتماد الشعراء على الكثير من شواذ التفعيلات (العلل والزحافات) التي يجب عدم ورودها واستعمالها الا بضرورة.

نقطة هامة رئيسية احب ان انبه عليها هي استعمال الشعراء لنصف التفعيلة لا للتفعيلة الواحدة باجمل اشكالها وكل امكانياتها الجمالية رقم ٦ وهذا يؤدي الى ذكر :

١ ـ ضعف الثقافة الفنية والموسيقية عند شعرائنا

٢ ـ الروح النثرية التي طبعت الشعر المعاصر

ز ـ مشكلة السرقات او التاثر بالشعر العربي والاستيحاء منه . ويمكن التعميم والقول بان الجميع تأثروا بالاداب الغربية والشعراء العالميين . فاذا دافع احد بان الحالات العاطفية التي تمر بها النفس تتلاقى وتتشابه ، فان هذا ليس مبررا كافيا وانما السبب الاصلي يعود الى جدب النفوس والفقر الفكري الذي تعيش فيه.

ح ـ تحول الواقعية الى الطبيعية عند شعرائنا والسبب ضآلة الثقافة وسوء الفهم .

ط ـ كثرة الحوار الجانبي واستعماله بشكل خاطىء في القصائد الغنائية العاطفية .

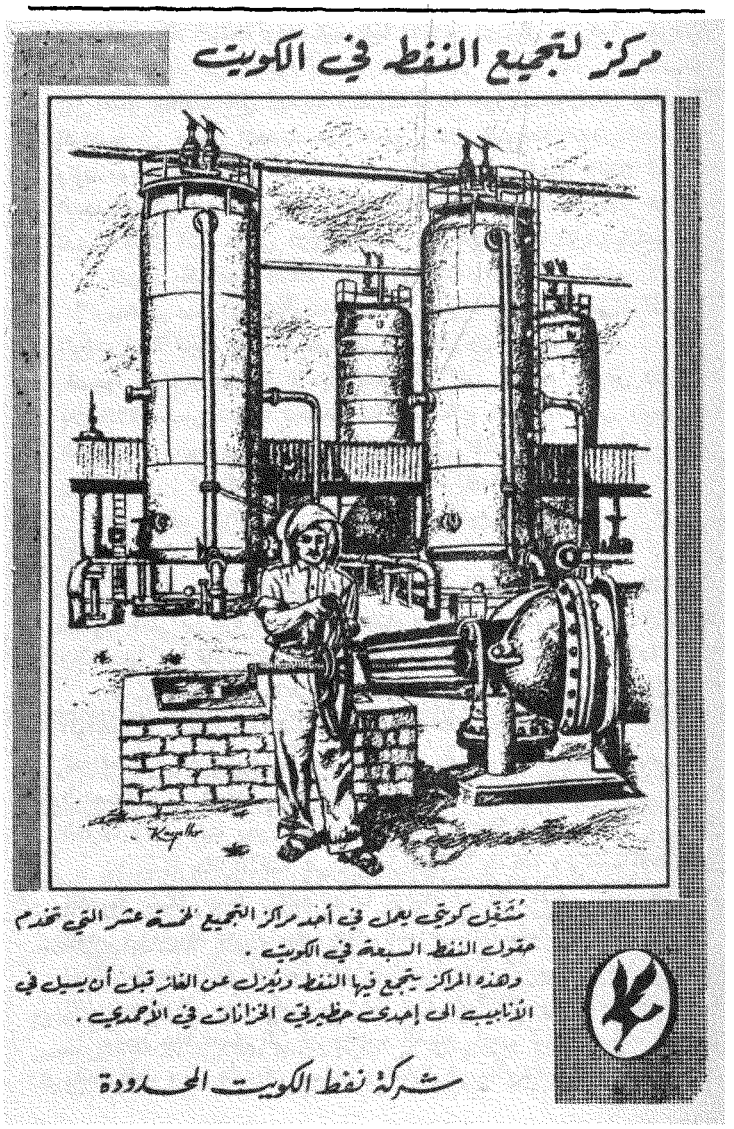

ي ـ من الناحية اللغوية نحن نجد استعمال الامثال والكلمات الشعبية دون الاتصال بمضمونها ورموزها وتفاسيرها التي تعود لزمن مضى ، وعدم فهم نشاتها والعجز عن ربطها بالحاضر والمستقبل .

ك ـ مسالة بدء القصيدة بحرف من حروف العطف على اعتبار ان للقصيدة امتدادا في الزمن الماضي ، وانها مستمرة خلال نفس الشاعر ، ونحن نلاحظ ان بعض الشعراء اصبحوا يبداون هذه البداية، لا لان القصيدة مستمرة في الزمن الماضي ولكن لمجرد التقليد وقلة الخبرة الفنية .

اعترف ان كثيرا من الخصائص لم اذكرها لاني لا اقوم ببحث موضوعي وكل ما فعلته هو قرع ناقوس الخطر . والاكتفاء بما في ايدينا .. فانا لم افصل طريقة معالجة اشكال التفعيلة الواحدة ، ولم افصل كيف نشا الشعر العربي .. لم افصل شيئا من هذا وغيره ، واكتفيت بحديث عادي بسيط خال من هدير الفحول وقعقعة المدججين.

دمشق

كمال سلطان
مجاز في الاداب

«لا أرض .. لاأصدقاء»

اللاحقيقة ارهاقا .. هربت من مدينتي الى حضارة جديدة .. كانت سعادتي في الطريق لحظة .. وعلى الشاطيء الاخر كان الخواء والزيف .

أنانيون

(١)

كثيرون ماتوا على الدرب . . في صدرنا مقبره
شتائية الريح ، لاتعرف المغفره
خطانا تمر بصحرائهم ممطره
الى الله ، منفى ، الى الاخره
سكارى
لصوص
وعشاق ذات ، وقوادة لاترى

(٢)

لا اصدقاء لهم
كقطرة الماء في صحراء مجهوله
جفت ضمائرهم
اسفنجة بانفعال الشمس مغسوله
مزيفون بهم
غور ادعاء وتهريج واحبوله
الرعب يمضغهم
كدودة في ضلوع الصدر مسلوله
كأن في يدهم
تشنجا والى الجنبين مغلوله
فارحل بدون اياب
ولا تقل احباب
ماكنت اعرفهم
نسيت حزن الشتاء
واصدقاء المساء
وانت اخرهم

ميلاد

(٣)

لاارض . . الزورق الفضي يحملني
البحر يملكني
والشمس والريح واللاشيء في زمني
ولادة من جديد ، ها هنا وطني
سعادة تغمر الابعاد ، تغمرني
لا شيء يتبعني
زرقاء صافية ارضي سماواتي
اكاد ادرك ان الله في ذاتي
ولادة من جديد في عباراتي
تضيء لي نفسي
في منتهى حسي

(٤)

رياح مسائيه
تناجي نجوم الليل
سماء ربيعيه
ومرشوشة بالطل
احس بصوفيه
بأشياء شرقيه
تفتح آفاقي
أحس بأسماك البحار الشماليه
تموج بأعماقي
وابصر ابعاد النجوم بأحداقي
واسمع صيادين مروا بأشواق
لاعين أسماك البحار الشماليه . .
وصلت الى ارض الحضارة ياقلبي
ظمئت الى حبي
الى اخضر الدرب

الحضارة

(٥)

تمر بأجمل ايامها
امير صباها واحلامها
يرافقها في الطريق الطويل
لترقص ابدع انغامها
كأن نجوم المساء
تضوىء وجه السماء
تثير بها أعمق الهامها
امير صباها واحلامها
يطوف بها في شوارع روما
يحدثها عن صفاء العيون
وباريس تضحك للمعجبين
وفالس فيينا الطروب الحزين
على لحنه يرقص الحالمون
مساء
وعند الصباح
طريق المناجم
درب المعامل ، بالحالمين
يغص ، بكل الحوامل والمرهقين
وفالس فيينا الحزين
يذوب ، يذوب كضوء صفاء العيون
واشعر اني غريب
واسمع موال حب عجيب
من الشرق ، ينبوع صوت حنون

(٦)

مناضلون ميتون
حضارة مزيفه
كانني امشي على جميع مافي بلدتي من ارصفه
لا شيء غير اوجه حزينة ومطفأة
تحس في اعماقها
بأنها بلا فم ، بلا شفه
مدينة محت ملامح الرجال
فيها ، تعيش في عنابر الحطب
في علب السردين في سلاسل من الذهب
وتلبس الكروم في اعناقها
مدينة بلا انفعال
عيونها مفتحات في الليال
أطفالها من النحاس والزهور والخشب
كأنهم لم يعرفوا أما واب
أحسها حضارة مزيفه

كمال سلطان